الرقَابَة

لماذا كتب ذلك الخطاب؟

إنه لَمْ يستوضح نفسه سببًا لكتابة ذلك الخطاب وهو يفكر في كتابته، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه إلى الرسول الذي تعوَّد أن يسفر بينهما بالرسائل، ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب: أي خاطر ذلك الخاطر الذي ورد على باله وهو يحسب أنه واصل إلى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ؟ أيظن أن خطابًا كهذا قد يثوب بها إلى الوفاء والإخلاص إن كانت تخون وتخدع؟ أيزعم ولو على سبيل الوهم البعيد أنها تتعظ وتندم لأنها تقرأ كلامًا كهذا الكلام وتُرَوِّي النظر في مصيرٍ كَذلِكَ المصير؟

آخر ما يطمع فيه العاقل أن يظفر بهذه النتيجة من امرأةٍ يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع! فكيف بصاحبتنا التي يعرفها حق عرفانها ويعرف أن الكلام لا يستحق عندها الهزء والتحدي بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير ... إنها تريد أن تثور وتجمح، ولا شيء أقمن بإشباع شهوة الثورة والجماح من مخاطبة الإنسان بكلامٍ يصدر عن العقل ويلبس ثوب النصيحة والهداية! وإن الرجل من رجال الدين ليستحق عندها كل إكبارٍ وتبجيلٍ؛ لأنه يخالف في حياته الخاصة ما يعظ به الناس في حياته العامة، وقد خاضا في حديث بعض «الأئمة النساك» مرةً فقال لها: لستُ على يقينٍ أن مولانا هذا يحب السماء والآخرة، ولكني على يقينٍ من حبه الأرض والدنيا ... ألا تعلمين ذلك؟ ... قالت: أعلم كل العلم، بل أعلم أنه يحب فلانة وفلانة وفلانة وفلانة ... غلطانٌ أنتَ يا صديقي إن حسبتَ أنك تغض من «مولانا» بما اتهمته، إن خفاياه تلك لهي التي تعجبني وتكبره في نظري وتحملني على تقبيل يديه، وإنني ما سمعتُ عظاته يومًا إلا استعظمتُ منه أنه قادر على مخالفتها، ثم راحت تقول مازحةً — وكانت كلمة غلطان يا صديقي